الباب الاول

انجلترا فى القرن التاسع عشر

العصر الذهبى الانجليزى

يعتبر كثير من المؤرخين أن العصر الذهبي الذى كان له سلطانه وتأثيره على الفكر الانجليزى هو من غير شك العصر الفيكتورى بعظمته وقوة اشعاعه . فقد استكملت فيه الأمة الانجليزية جميع ما كانت تصبو اليه امة أرادت أن تتبوأ مكانا ساميا تحت قرص الشمس . . .

وهل ينسى القارىء عصر جلادستون وبامرستون ودزرائيلى ؟ !

أو ينسى معاهدة باريس ، ومؤتمر لندن « ١٨٧٨ » أو بمعنى أصح النصر الدبلوماسى لانجلترا والانجليز ؟

المعاهدتان اللتان توجتا رأس الأسد البريطانى باكليل من غار ، وأظهرتا انجلترا كأمة خالدة لايشق لها غبار فى عالم الدبلوماسية والدهاء ؟ !

كان النجاح حليف انجلترا ، ورائد ملكتها فيكتوريا التى حكمتها حقبة طويلة . وكان الله قد قيض لانجلترا فى ذلك الوقت رجالا وشخصيات تاريخية مثالية نادرة عدم منها العصر الالزابيثى على جلالة قدره ورفعة شأنه ، اذا ما حاولنا أن نقارنه بالعصر الفيكتورى أو العصر الذهبي الانجليزى !

وها نحن اولاء نرى أنه من الواضح الجلى أن نذكر بعض هذه الشخصيات

التي أثرت تأثيرا بالغا فى هذا العصر ، وطبعته بطابع الخلود عن غيره مما سلف من عصور. فترى مثلا تشارلس ديكنز وقد توج هامة الأدب برائع انتاجه وآثاره . ونرى دارون وقد توج هامة العلم بفيض ابحاثه ونظرياته، ونرى ارفنج وقد نهض بالمسرح نهوضا لم يسبق لمثله أن نهض به فى أى عصر سابق أو لاحق . ثم نرى اخيرا مجموعة طيبة من عظماء الرجال والفلاسفة كسبنسر ورسكن ومل . وكل له اليد الطولى فى تهذيب الفكر وتمحيصه بشتى ماتركوه وراءهم ، وماناداوا به أيام زهوهم وقوتهم من آراء فى الكون والوجود .

ثم لا يفوتنا أن نذكر ثلاثة من كبار الساسة الدهاة هم لاشك غوردون وولسلى وروبرتس . هؤلاء الذين لعبوا دوراً بل أدواراً جبارة فربحوا المعارك الطاحنة فى القارات الثلاث المعروفة !

كان العصر الفيكتورى إذن طافحا بأمثال هؤلاء الرجال الخالدين الذين ضربوا بسهم وافر كل فى دائرة اختصاصه . فسموا وارتقوا ببلدهم سمواً ورقيـــاً لامزيد عليهما . وحاز كل منهم من الشهرة البعيدة والصيت الأوفر ماجعل انجلترا تتعالى وتشمخ بأنفها ، وتطغى وتتكبر على غيرها من بلدان العالم وشعوبه . .

ولكى نعرف مدى تأثير وخلود هذا العصر عن غيره من العصور السابقة علينا ان نستعرض مثلا القرن السادس عشر أو السابع عشر. فنخرج من بحثنا أن العصرين كانت الحياة فيهما بسيطة بل كادت تكون هادئة يتسلط عليها القديسون والمنجمون والشعراء والفنانون . تحاول كل فئة أن تنهض بالنـــاس وتحثهم على أن يسلكوا طريق السلام والمعرفة ولكن فى رزانة وبطء وهدوء .

وكانت كل هذه المحاولات بلا شك دلائل تبشر بانبثاق فجر جديد يجمع بين الحضارة والعلم والعرفان ، ويقضى على خرافات الاجيال ، واشباح

الماضى المخيفة المرعبة . فهبت على انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر عواصف هوجاء عاتية صاخبة، تمخضت عن النصر الخالد فى معركة « واترلو » وابرزت للأمة رجلين خالدين هما ولنجتن ونلسون !

ثم كانت الثورة الفرنسية التى وثبت عدواها من بلد الى بلد فى عام ١٨٤٨ ولكنها على كل حال لم تهز انجلترا أو تقتلع حجرا واحداً من احجار بنائها التاريخى الصامد العتيد . بل ماتت فعلا محاولات « اوبرين » الثورية وانمحت من الذاكرة والخيال ، وأصبحت نسياً منسياً — اى تلك المحاولة التى يقول عنها السير وليام واطسون « غبار التصادم المندثر . . »

إذن فلم تؤثر عوامل الأرهاب فى نفوس الانجليز . بل وما كادت تلك المحاولات تموت فى غمرة اليأس ، حتى عاد المجتمع الانجليزى الى هدوئه وسكينته ، وعادت حياة العائلة الى ما كانت عليه قبلا من استقرار . وكانت رغبة الناس جميعاً أن يعيشوا عيشة ناعمة لا بلبلة للخواطر فيها . وحتى الملكة نفسها كانت تطمع فيما كان يطمع فيه شعبها من حياة الرغد والسعد . .

ولعلنا اذا استعرضنا بعض مايقوله بلسون — الكاتب الانجليزى المعروف — عن هذا بالذات لوجدناه فى أكثر من مناسبة يقول « كملكة وربة بيت كانت حياتها تقوم على قواعد البساطة ، فهى تكره كل تصنع وتكلف . لا يهمها البحث وراء مشاكل الطبيعة البشرية ، ولا البحث وراء الهواتف والدواعى والدوافع التى تدفع المرء الى احتراف الفن أو الموسيقى مثلا بسيطة ومخلصة فى عقيدتها التى تدين بها وقد ربت أبناءها على الحكمة وخوف الله وخوفهم منها أيضا . . .

وكان حكم الملكة فيكتوريا على الاجمال أقوى حكم عرفه التاريخ الانجليزى فقد كانت الملكة خيالية الى أبعد درجة . أما سياستها وعاداتها الشخصية فكانت مناسبة أو بمعنى آخر معتدلة . تحترم الطبقة المتوسطة التى اعتبرتها هى القوة الاصلية التى ترتكز عليها دعائم حكمها . ولم تكن الملكة بالساذجة

أو البسيطة . فقد اختارت حاشيتها من رجال الارستقراطية . وبذلك تحاشت الدخول معهم فى مشاحنات ومنازعات لاطائل من ورائها . .

ومما يدلك على مدى تقدير الانجليز لهذه الملكة العظيمة ، أنهم ما كادوا يقيمون الحفلات لعيدها « الخمسيني الماسى » حتى كانت الأمة بأسرها فى غبطة وفرح يعسر وصفهما . بل ويقول شاهد عيان أن ميناء « سبتهد » كان مزدحماً بالسفن والمراكب الشراعية الى مسافات بعيدة ، بل يكاد يقول الى اميال. فامراء من الهند ، وسفراء من مختلف بقاع العالم، ومندوبون عاديون وغير عاديين من كل حدب وصوب . الكل يحتفل ويمجد ذكرى تلك الملكة العظيمة التى تركت أكثر من اثر نابض فى عروق الأمة الانجليزية . .

شعور دافق ، وحماسة منقطعة النظير ، وهتاف من الاعماق . وتبجيل وتقدير من الصحف السيارة ، على اختلاف انواعها وتباين نزعاتها ، الجرائد تسهب الكتابة عن العصر الفيكتورى عامة ، وعن العصر الذهبى الأدبى خاصة. فمقالات طنانة عن الدراما ، وعن الادب الواقعى . بل ولقد ذهب بعض الكتاب الى أبعد من ذلك فقارن العصر الفيكتورى بالعصر الأثينى الزاهر أى عصر الانتاج والنشاط . . . ولابد أن كل عصر من عصور الانتاج قد أعقبته فترة خمول لم يسلم منها ، ففى أثينا مثلا بعد ازدهار الدراما ونجاحها نجاحا فائقاً ، هبط مقياسها وارتفع بدلا منها مقياس الفلسفة ثم الخطابة . . وفى اسبانيا أيضاً كان خمول الرواية ملحوظا ، بل كاد يكون ثابتا لا أمل فى علاجه ، وفى فرنسا اى فى عصر لويس الرابع عشر كان هناك تفككا فى مقاييس النهضة . . وارتفاعا فى ناحية وانخفاضاً فى ناحية أخرى . . .

دعنا نستعرض بعض اخبار الثورة الفرنسية ، فقد لعبت دوراً كبيراً فى مقاييس الأدب الاوربى على وجه عام ، والأدب الانجليزى على وجه خاص . وفى استعراضنا لحوادث الثورة مقارنة طبيعية بين فترتين هامتين ألا وهما : عصر الثورة ، والفترة التى تلتها بعد هبوط حماستها وقوتها . فلا ينكر

انسان أن الثورة كانت لاوربا على الاجمال فى الحياة العامة وفى الأدب . ولا كثر من عشرين عاما كان السيف مسلولا يهدد اوربا بالدمار والخراب، ويهز من أركان الممالك والقارات . ومن المحقق أن الحرب فى ذاتها قد لا تكون منتجة . ولكن « دى توكينيل » اثبت فى براعته المعهودة أن الآراء السياسية لها خطرها ومغزاها — وهو يقصد تلك الآراء التى ألهبت الحماس فى نفوس الثوار ودفعتهم الى اكتساح المعارك الدامية الطاحنة فى غير مبالاة ...

ولكننا اذا نظرنا الى الامام جيلاً باكمله فاننا نرى عن بصيرة أكثر من عامل واحد لفشل الثورة فشلا تاما . ويدلنا على ذلك انه فى عام ١٩١٥ خاضت الممالك وقاست الأمم أسباب المجاعة والفقر وقصر اليد ، وتحطمت آمال الشعوب، فأصبح الكل وجلا خائفا مزعزع الثقة حتى فى نفسه . .

وإذا أجملنا آراء « دى توكينيل » من جديد فى الثورة فقد يعتقد كثيرون أنها لاتزال حية ، ولكن الواقع انها منيت بالفشل الكامل وغاب شبح الحرية والمساواة وذابا فى ضوء النهار .

ولم تقاس انجلترا مثلما قاسته اوربا من جراء الثورة والانقلاب فلم تشعر بضغط السلاح يكتم انفاسها أو يخرب أرضها ، بل كانت ناجحة الى حدما فى تجارتها وسياستها على السواء !

ولكنها على كل حال لم تسلم من رد الفعل الذى كان شديداً عليها بعد الحرب فالاسعار مرتفعة ، والتجارة كاسدة ، والحالة سيئة فى المصنع ، لاقانون يحد من قسوة أصحاب المصانع ، ولا قانون يحمى الجنس البشرى أو العامل من الفناء...

وكانت الحالة اجماليا تبشر باندلاع حرب أهلية إن لم ينقذ المصلحون بلدهم من تيارات التذمر والغضب المدفونين فى النفوس . . .

ولكن هبوط وصعود مقياس الأدب فى كل أمة من أمم العالم امر

أصبح شائعا وعاما . فظاهرة الفشل أو النجاح من الظواهر المسلية والمشجعة على البحث والاستقصاء ، لاسيما فى بلد كانجلترا يمتاز عن غيره بالرزانة والهدوء فى التفكير والوصول إلى الحقائق بعد الخبرة والصبر والمران ...

فى انجلترا مثلا إذا حاولنا أن نعلل أسباب فشل الأدب أو نجاحه، فاصلح مايعمد اليه المؤرخ أن يذكر مثلا تاريخ الفترة التى مات فيها هيوم وجونسون وآدم سمث وجيبون وبروك . فقد ماتوا جميعا فى فترة لاتتجاوز عشرين سنة. وموتهم هبط مقياس الأدب هبوطا سريعا بانتهاء القرن الثامن عشر . ولكن هذه الخسائر الفادحة لم تكن لتجعل ترمومتر الأدب هابطا على الدوام . فقد ولد «وردسورث» و «سكوت» و «كلريدج» قبل موات الفئة الاولى . وولد بايرون وشيلى وكيتس قبل ممات الرجل الأخير ...

فأعمال هؤلاء الرجال جميعا قد توجت انجلترا باكثر من إكليل غار فى الرواية وأدب الثورة . وهناك فقط اتصال بينهم جميعا قديندر أن يكون موجودا بين رجال الاجيال السابقة .. فقد كانوا رغما عنهم أبناء الثورة وافكار الثورة كانت تلهب ادمغتهم إبان حركات الانقلاب ...

وإذا نظرنا من وراء جسر من الزمن يعبر خمسين عاما بعد هذا التاريخ فاننا نجد النظام القديم وقد تبدل وتغير . فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ماتت الحركة الناشئة من عدوى الثورة الفرنسية سريعا ..

مات كيتس عام ١٨٢١ وتبعه شيلى عام ١٨٢٢ وبايرون عام ١٨٢٤ بعد أن أكمل كل منهم عمله على خير ما يكون .

وفى عام ١٨٣٢ مات سكوت فى انجلترا وجوته فى المانيا وسويفر فى فرنسا عام بعد ممات هيجل وهؤلاء جميعا أثرت آراؤهم وافكارهم على القرن التاسع عشر تأثيراً كبيراً ..

ولكن السنوات ما بين ١٨٢٥ و ١٨٤٠ كان الانتاج فيها مرموقاً وإن

لم يكن فى قوة إنتاج بايرون أو نثر سكوت وشيلى وكيتس ومس اوستون أو كلريدج ووردسورث . ومهما يكن من أمر فان لمعان عام ١٨٢٥ . ينبهنا الى أنه قد بذرت فيه بذور الأدب الرفيع لأوائل العصر الفيكتورى الذهبى .

فبنهوض هذا الأدب علينا أن نقدر أهمية الاعوام التى تلته . . ومن المسلى أن نلاحظ أن الرجال الذين محصوا الفكر فى انجلترا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانوا على دراية واسعة بعلم السياسة . فقد ظنوا أن الثورة الفرنسية فشلت ولكن بعضهم مثل كارليل لم يعترف بفشلها . وعبر عنها آخرون مثل تنيسون بذلك القول المأثور . . . « رعونة اهل السين وطيشهم !! . . . »

وعبر عنها غيره بأنها « إعلان مقدس » وقد تجلت قوة هذه التعبيرات فى اشعار كلريدج، ووردسورث،وفى كتابات شيلى، وفلسفة جودوين..

بينما ظهرت الثورة فى أعين آخرين كأنها قوة شيطانية أو جهنمية كما جاء فى كتابات سكوت وبروك. ولكن قبل نهاية ربع القرن الأول تغير كل هذا. فكان هناك مثلا كثيرون لم يتفقوا مع بروك فى أن الثورة قوة جهنمية وكان هناك قليلون يعتبرونها « اعلان مقدس » فكان هذا الصراع يستدعى الدراسة والنقد .

فالنصر الذى حول انجلترا عن دفة الخطر جعل الرجعيين يركزون خطواتهم بعض الشىء . ويهمنا فى كثير أن نذكر أن تيارات التجديد فى الأدب الأنجليزى اخذت تصل الى درجة لابأس بها . فمثلا نرى ان « لى هنت » الناقد المشهور سجن من عام ١٨١٣ الى ١٨١٥ انقده بعض احوال احد الأمراء المعاصرين له. وقد سيق الى السجن لأن الفضائح التى ذكرها كانت صحيحة . ثم محاكمة ريتشارد كارليل لنشره اعمال « توماس باين » التجديدية عام ١٨١٩ . ثم محاكمة توماس بولى عام ١٨٥٧ . .

ولذا بذل هكسلى وغيره مجهودا جباراً للمحافظة على آرائهم وحريتها . فالتعصب يمكنه أن يقوم على قدم وساق باسم العلم والدين كما كان فى القرن التاسع عشر الانجليزى . .

وكانت حالة الأدباء تستدعى الإشفاق . فكان كارليل مثلا وهو فى عامه الخامس والأربعين يعيش عن طريق محـــاضراته . ولو لم يكن دارون يمتلك ثروة ضخمة لما كرس وقته للعلم . وحتى براوننج الشاعر لم يربح كثيراً من كتاباته الاولى لعدة سنين . وحتى آرنولد أيضاً كسب قليلا جدا طوال جهاده وكفاحه من اعماله الكثيرة . فى حين أن تنيسون الشاعر الشعبى كان مضطراً الى أن يوقف علاقاته مع اميلى سولوود لانه لم يكن يقدر على الزواج منها لقصر يده .

وهكذا كان . ففى ابتداء الفترة كان حال الشعر منحطاً . والشعر زهرة الأدب كما هو معروف .

وكانت سياسة الناشرين إبان هذه الفترة أيضا ألا ينشروا شيئا أوليا لكاتب ما . ونضرب على سبيل المثال « موري » الذى وضع هذه السياسة قانونا لايحيد عنه . وفى عام ١٨٤١ كتب جون سترلنج إلى امرسون يقول . «انه ليس هناك رجل واحد تستحق كتاباته مصاريف النشر !!...»
وكان سترلنج مخطئا لاشك فى ذلك ..

فى حين أنه بعد هذه الفترة كان « مارتن توبر » مثلا يكتسب من خمسمائة جنيه إلى ثمانمائة جنيه من كتاباته الفلسفية . بل ودفع الشعب الانجليزى عشرة آلاف جنيه لكتابه « روح الحكمة » .

وكل ثورات الفكر ، او انقلابات الأدب جاءت عن طريق هؤلاء الأدباء والعلماء الذين كانوا يمتلكون ثروات ضخمة . فالأدب فى كل العصور يعيش على الأفكار أو يموت من قلتها . واذا كان للادب علاقة بالسياسة

فلاشك أن له أكبر علاقة بالدين والفلسفة . ولكى نفهم العصر الفيكتورى على صحته علينا أن نبحث عن نقط التشابه والاختلاف بينه وبين العصور السابقة له . ودراسة عابرة للآراء الدينية والفلسفية التى عاشت عليها هذه العصور، وعاش عليها القرن التاسع عشر على نوع خاص، كفيلة بأن تأتى بالمقصود . فمن الناحية الدينية نجد أولا أن علاقة العصر الفيكتورى بعصر الثورة كان مسلياً ومثيرا فى آن واحد . فعلم السياسة مثلا كان عرضة للهوان . فوجهات النظر السياسية التى ورثتها القرون عن غيرها من القرون السابقة كان لها عليه أكبر اثر . فى العصر الفيكتورى كانت المدرسة العقلية هى السائدة ، متغلبة على الافكار التى تدرجت من وراثة الاعتقاد بالله وانكار الوحى والأنظمة الدينية مع رجع فعل المذهب الكاثوليكى الذى اعلن عن نفسه فى أول القرن التاسع عشر والذى لايزال تأثيره قويا !

فالخلاف الذى نشأ بين هذين المذهبين يجعل العصر مثيراً للدهشة والاستغراب فى تاريخ الأدب الأنجليزى للقرن التاسع عشر . .

ولم يشهد القرن التاسع عشر مع هذا تضاد المذهبين . كما شهد من قبله القرن السادس اليونانى ـ قبل المسيح ـ مثل هذا التخبط بين عدة مذاهب . فقد شهد عصر سولون مثلا ابتداء مذهب العقلية . وذلك لعدم رضاء النفس بنظرية هزيود عن أصل العالم فأباحت ولادة الفلسفية الأيونية .

إذن فمن الثابت انه فى ابتداء القرن التاسع عشر ، تسلل المذهب العقلى . . فهيوم بمنطقه السليم ، وجبون « ملك السخرية » وفولتير بفكاهته النادرة وصراحته وسخريته . . هؤلاء جميعاً كانوا عناصر أصلية للقرن الثامن عشر وأصبحت الثورة الفرنسية من كفاحهم ومجدهم . . .

وطغت على القرن التاسع عشر من أوله إلى آخره عدة تيارات مختلفة تركت آثارا كثيرة فى كل ناحية من نواحى نشاطه . . فى الدين والسياسة والأدب والصناعة والاقتصاد . . .

استعراض عام لتاريخ الرواية في القرن التاسع عشر

الأدب الايرلندى

كانت روايات « وافرلى » أهم روايات ظهرت فى تاريخ الرواية على وجه عام ، أو فى الفترة بين عصر فيلدنج وديكنز وثاكرى على وجه خاص.. وكان الفضل يرجع فى ذلك إلى آثار سكوت وما تركه من درر ونفحات ..

وحتى بلزاك أحد هؤلاء الذين لمسوا عن صدق تأثير سكوت وان لم يعمل على تحسين الرواية أو النهوض بها . وكل ما تركه آثاراً ضعيفة جداً لاتقارن بما تركه سكوت . وليكنه مع هذا حول الرواية إلى ناحية أخرى هامة ، ألا وهى أن رواياته كانت خليطا من العاطفة الممزوجة بالذوق السليم أو الحقيقة ممزوجة بالخيال . أو الهزل ممزوج بالجد . .

ومدارس تاريخ الروائيين فى انجلترا وأمريكا وفرنسا وفى كل مكان آخر كانت تعتبر من غير استثناء خاضعة لتأثير مدرسة سكوت عليها جميعاً . وليس من المغالاة فى شىء أن نقول إن الرواة الارلنديين أنفسهم الذين ظهروا بعد مس ادجورث وليدى مرجان كانوا أيضا تلاميذ سكوت .. وقد صرح سكوت نفسه مرة أن روايات مس ادجورث هى التى اضطرته إلى أن يتجى بالرواية ناحية يخدم من ورائها بلاده كما فعلت هى . . أما الرواة الذين ظهروا بعدها لم يقلدوها أو يسيروا على نهجها بل كان تأثرهم بسكوت أكثر وأعم .. فعمدوا جميعا إلى أن تستمد الرواية وقائعها من صميم حوادث بلادهم أو بمعنى آخر تدور حول الصراع القائم بين الأنجليز والارلنديين، تماما كما فعل سكوت. فكان بانيم وجريفن وكارلتون ولفر وليفر من تلاميذه من غير استثناء . وكما حدث فى روسيا فى عهد القياصرة فان الرواية كانت سلاحا ذا حدين فى الثورات السياسية ...

وكان النصف الأول من القرن التاسع عشر ربيع الرواية . ولم تكن القصص الخيالية فرعا من فروع الأدب فحسب . بل كانت طريقا لكسب العيش . ويقولون إن دخل بعض الكتاب فى هذه الفترة بالذات كان كبيرا إلى درجة بعيدة . وكان سوق الرواية ناجحاً . ومع ذلك أيضا فقد لزم التحس وسوء الطالع بعض الكتاب . فمثلا كتب كارلتون روايات متواضعة فى حين أن عبقريته لم تتجل إلا فى كتاباته الدراماتيكية . وكان حال الرواية فى انجلترا تماما كما كان عليه فى ايرلندا . فان الايرلنديين كانوا يعتبرون الرواية كنوع من أنواع الدعاية . وإن كانوا لم يعيروا الادب أو البيان ذاته أهمية كاهتمامهم بالحقائق والتاريخ والواقع ...

وابتدأت المدرسة الأيرلندية للروائيين نشاطها حوالى عام ١٨٢٥ عندما طبع « اخوان بانيم » أول قصصهم لعائلة أوهارا . وكانت الكاتبة المعروفة ماريا أدجورث انجليزية أكثر منها ايرلندية . فلم يكن ليعتبرها الارلنديون كواحدة منهم بينما كانت الليدى مرجان الأديبة الارلندية الكبيرة بين بين..

وكل ما يهمنا قوله أن اخى بانيم كانا من طبقة الفـــلاحين . وفسرا المشكلة الايرلندية كما يراها الفلاحون الارلنديون . وكان جون أحد الأخين متشائما لتشبعه برعونة الجنس السلتى فكان يطرق ناحية العنف باستمرار . وقد اشترك الأخان معاً فى كتابة الرواية الخماسية وكانا ابنين لفلاح لم يبخل عليهما بالتعليم . وكان جون بانيم فى بدء حياته مدرس رسم فى مدرسة صغيرة بقريته وكانت حياته سلسلة من أشواك وأمراض ، ولكن نجاح قصص أوهارا جاء متأخراً ، أى بعد وفاته فى الرابعة والاربعين من جراء شلل انتابه . واستمر أخوه « ميشيل بانيم » يتمم ما لم يتممه ، أخوه فاخذ يدرس القانون ، ويكتب الروايات التى لاتزال تحظى بمكانة ممتازة فى الأدب الايرلندى المعاصر ...

ثم يجىء دور الروائى جرالد جريفين . كاتب الفلاحين أيضا ، بالرغم

من انه لم يأت من حظائرهم . وكان جريفن شاعراً ثم روائياً ممتازاً . وكان يسرف كأخوان بانيم فى سرد التاريخ الخيالى . لقد أحب جريفن الفلاحين ودافع عنهم دفاعاً مجيداً فى كتاباته وتبعه كثيرون أمثال ماكسول وآنا ماريا فيلدنج « الأنجليزية الايرلندية » ثم وليم كارلتون اعظم كتاب عصره . فقد ترك وراءه دراً ونفحات طيبة فى أدب الرواية الايرلندى. ومما هو جدير بالذكر أن كارلتون فى بدء الحركة الارلندية كتب ثلاث روايات يطلق عليها مقسمو العصر الايرلندى « روايات الغرض » وفيها تحلل لنا كارلتون مساوىء الخمر والخلق وما يملأ عصره أو مجتمعه من أخطاء ثم يجىء بعده « وليم ماجنن » وهو أديب موهوب ثم « تشارلس ليفر » وهو من أصل انجليزى فى حين أن أمه كانت ارلندية صميمة . فبين الكتاب الايرلنديين جميعاً وكانت رواياته كلها عن ايرلندا والايرلنديين . فقد عرفهم جميعاً ولكنه لم يعرفهم عن دقة ! . . .

عصر ديكنز

تعمدنا فى الصفحات القليلة الماضية أن نذكر طرفاً من تاريخ الرواية الايرلندية ، وذلك لكى يسهل على القارى مقارنتها بالراوية الانجليزية فى الجزيرة البريطانية نفسها. أو بمعنى آخر ليقارن عصر ديكنز الانجليزى بعصر الرواة الايرلنديين الذين ذكرنا عنهم بعض اخبارهم . وليشهد بنفسه الفارق الكبير بين الاتجاه الروائى فى الجزيرتين الايرلندية والانجليزية ..

فأول ما يمكننا أن نقوله عن ديكنز ، كما يعرف العام والخاص ، إن طلبت منه إحدى دور النشر أن يكتب لها عن مجموعة مختارة من صور ممتازة تجمعها وتخرجها فى كتاب واحد .

وكان هذا نصراً أدبياً كبيراً لديكنز من غير شك. ولكن هناك سؤالا . عمن تأثر ديكنز وإلى أى مدى اثرت عليه كتابات سلفه من الادباء

المشهورين امثال سكوت وثيدور هوك ومسز كاترين جور (١٧٩٩-١٨٦١) وغيرهم كثيرون ...

وكل ما يمكننا قوله أن ظروف طفولة ديكنز كانت كلها تدور حول مرضه وفقد ابويه والصراع فى سبيل العيش . اثرت كل هذه عليه وانطبعت فى ذاكرته حوداث صباه إلى آخر يوم فى حياته .

ويقول كثير من النقـاد أن أحوال فقره كانت سبب بلوغه إلى قمة المجد والشهرة . وقد سماها البعض (بالعناية الالهية) وقد يكون هذا القول صحيحاً إلى درجة ما . ولكن ديكنز ابتدأ ببداية مشرفة ونادرة . وكان عمله الأول ناجحاً إلى درجة بعيدة . وكان من السهل أن يصبح ديكنز روائياً المعيا بفضل مواهبه وقوة ارادته . وقد كان ..

وسر نجاح ديكنز اتاه عن طريق نجاحه فى كتاباته الأولى « بوز » وبيكويك واقبل ديكنز على كتابة الرواية فصادف نجاحاً مرموقاً . وعالج الدراما ايضاً ، وكتب عدة مسرحيات ولكنه لم يصادف نجاحا مثلما صادف فى كتابته الرواية . والسبب فى ذلك يرجع إلى انه كان ضحية « الملدراما » إلى آخر درجة وقد لمس بنفسه هذا الضعف فى مستهل حياته الكتابية ولكنه لم يجد لها علاجا ناجحا فاهملها ...

وبدأ ديكنز كتابة قصته الخالدة « دافيد كوبرفيلد » وقرأها على زوجه وولده . وعارضت الزوج وعارض الابن ايضا فى نشر القصة . ولكنها خرجت للعالم تشهد ببراعة الاديب ديكنز وتخلد عبقريته على مدى الدهور .

وقصته « دافيد كوبرفيلد » ليست قصة حياة ديكنز كما يظن كثير من الكتاب والنقاد ، ولكنها تعطينا تاريخ فترة مرت فى حياة ديكنز الا وهى فترة الصبا والشباب . وكيف كان الكاتب يعكس من حوادث حياته صورا تمثل واقع هاتين الفترتين بصدق وأمانة .

وهى كما يقول أكبر نقاد الأدب « نموذج حى لكتابة الرواية » ففيها مثلا صهرت التجربة الشاب فى مستهل حياته فصمد للحوادث وتحدى القدر فتكون عقله وتغذى فكره بجميع الاشياء التى كانت تحيطه فاحسن تصويرها وأجاد وصفها . . »

ويقول ديكنز فى هذه الرواية . . (لم يزح أحد الستار بعد . ولكنى رفعته لحظة فى هذه الرواية بالذات . بيد حازمة ثم القيت به بانشراح . وتشابه هذه الحياة محز فى نفسى ويؤلمنى إلى درجة بعيدة . إجهاد فكرى عنيف مضى ، وأمل ضعيف . فلم يكن عندى الشجاعة الكافية للتفكير فى كم من الزمن يستغرق هذا الموقف المحرج . سنة أو أكثر لست أدرى . . وكل ما أعرفه انه كان . . وتوقفت ثم كتبت وهناك تركتها . .)

تأثر ديكنز فى صباه بقراءات كثيرة أو بمعنى آخر بعدة كتب التهم محتوياتها التهاما غريباً . وهذه هى مجموعة الكتب التى قرأها ديكنز قبل مغادرته شاسام إلى لندن . . (الليالى العربية) و (قصص الجان) ثم كتب سمولت ثم فيلدنج وجولد سمث وسرفانتس ولوساج ودفو (روبنسن كروزو) وكان ديكنز معجبا بكتابات سمولت إلى أبعد درجة، أكثر من إعجابه بكتابات فيلدنج . والفرق بين الكاتبين ملحوظ . ولكن ديكنز لما كبر كان يفضل سمولت . ولعل أسباب ذلك ترجع إلى أن قسوة سمولت كانت أسطورة كما رآها الروائى النابه ، لو أنه كان قد سمع بها . أما السخرية والنقد اللاذع اللذان ظهرا لديكنز كانا مجرد ضحكات سمولت العادية . يختلفان عن الاحساس والرقة اللتان كان يتمتع بهما أسلوب فيلدنج . ولم يتأثر ديكنز نفسه بعبقرية فيلدنج ولم يماثله فى كتاباته الهادئة المتزنة . ولكنه كان على العكس تأثراً ، تحت تأثير عقد نفسية شديدة .

وأما عن جولد سمث فقد قرأ له « راهب ويكفيلد » أولا ثم أولع بقصته « النملة وسكان العالم » وعن الجرائد التي جمعتها مكتبته فهى « المتحدث »

و « الناظر » و « الكسول » وغيرها من المجلات المسلية التى كانت تظهر فى أيام صباه . كما تأثر كثيراً بقصص الاسفار . فنجد فى روايته (بيكوبك بيبرز) كثيراً من الجمل والتعبيرات التى تدلنا على مدى تأثره بهذه الرحلات والاسفار فيقول مثلا (وكان الصبي يذرف الدمع سخينا عندما يقرأ الروايات المتعددة فى صباه والتى كانت تملأ قريته وبلده من الشمال إلى الجنوب . .)

كما وقع فى طريقه كتاب هوليين المشهور (رقصة الموت) وغيره من الكتب التى أثرت على إنتاجه . . .

تأثير البيئة على انتاجه

القراءة وقوة الملاحظة كانا يسيران جنبا إلى جنب فى حياة ديكنز وعن التجربة والملاحظة الدقيقة يمكننا أن نقول انه قليل هؤلاء الكتاب الذين ينهلون من مناهل التجربة والملاحظة من ينابيعها الاصلية . ولم يعرف انسان المدينة أكثر مما عرفها ديكنز . فقد عرف شوارعها كما عرف سطور وصفحات كتبه التى كاد يحفظها عن ظهر قلب .

ولا تخلو رواية من رواياته سواء كانت الأولى أو الأخيرة من دقة وصفه للمكان والزمان . ففى روايته (Uncommercial Traveller) بالذات يقف القارىء على كثير من دقة ملاحظته ووصفه الصحيح للازقة والشوارع والأشجار مما يدلك على خبرته الواسعة فى مضمار الوصف . .

قلنا إن ديكنز تأثر كثيرا بسمولت وفيلدنج وجولد سمث . وعنهم نهل أصول كتابة الرواية . وطريقته فى إجادة وصف الأمكنة أخذها عن جولد سمث ولكن فى براعة تفوق براعة جولد سمث . .

كما تأثر أيضا بكتابه « واشنطن ارفنج » « ١٨١٩ » ويقولون إن لم يكن ديكنز قد تأثر حقيقة بصور ارفنج وكتابات براسبردج «١٨٢٢» عن عيد

الميلاد . لما تسنى له أن تخرج تلك الكتب فى هذين الموضوعين بالذات يضارعهما ويفوقهما جمالا وتنسيقاً . .

وأثبتت الوقائع أيضاً أن ديكنز كان ملماً بقصص (هوك) وعرف قيمة أسلوبه العالمى المشهور فقلده . ثم عن ثيودور ومزجه الحقيقة بالخيال والسخرية بالعاطفة ، والجد بالهزل . قد يكون هذا كله قد أثر فى إنتاجه فانتحى ناحيتهم . . .

نموذج من كتاباته الصحفية

نجح ديكنز فى كتابة الديالوج . ولعل أطرف وأحسن ما كتبه أيام أن كان مخبراً لجريدة كبيرة صورة حقيقية للبرلمان . وقد نظر إلى مطبخ (بلامى) فعرف لساعته السر لماذا كان أعضاء البرلمان غير معروفين أو مشهورين لعدم ترددهم على المطبخ المذكور . . . (كانوا دائماً يتناولون الطعام فى منازلهم) ولعل السبب الرئيسى فى عدم نجاح الأعضاء الايرلنديين يرجع إلى مايذكره (لماذا ياسيدى يذهب العضو الايرلندى إلى هنالك ، ويتناول طعام ثلاثة أعضاء انجليز ؟ انه لم يأخذ نبيذا ، ولكنه شرب بيرة كثيرة : ثم ذهب إلى منزله فى مساكن مانشستر أو شارع ملبانك ليحتسى الوسكى والماء ! !)

كما نجح ديكنز فى كتابة قصص قصيرة فى جملة واحدة ! ويكفيك أن أن تقرأ قصص عيد الميلاد فهى تطفح بهذه الجمل الطويلة التى تحتوى على قصص قصيرة منفصلة كما تؤدى إلى هدف معين ومغزى دقيق . . .

أسلوبه

نجح ديكنز فى كتابة الديالوج كما ذكرنا ، وأجاده إجادة شهدت له بالبراعة المنطقية . وتزعم ديكنز هذه الناحية . فكون أسلوبه أوخلقه على أحدث الأساليب . وجعل له أسلوباً خاصاً وطابعاً خاصا يعرف بهما وقد

تفوق على الأساليب الحديثة بمهارته المعروفة فجاء أسلوبه سلساً نادراً عذباً . لا التباس ولا ارتباك فيه ...

وكان أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم هم سمولت وفيلدنج وغيرهما . وأكبر الكتاب أمثال « لى هنت » ولامب . وفى مقالاته التصويرية عن « بوز » ينتحى ناحية أستاذه جونسون ..

كما أجاد ناحية الفكاهة . ولذا ترى مثلا فى روايته « بيكويك » كثيرا من الملح النادرة وطريقته فى كتابتها حسب وضعها موضوع اثارة كثير من النقاد واعجاب ملايين القراء به .

ولو حاولنا أن نحلل طبيعة الديالوج فى رواياته الأخرى لسنا بأنفسنا روعة البلاغة فى كتابة « مارتن شازلويت » وسعة خياله وسحر بيانه ، وتدفق الألفاظ والمعانى فى أسلوب سهل هين يكاد يكون شعراً .

ولكل شخصية فى كل رواية طابعها الخاص وتباين إختلافها عن الشخصيات الأخرى . فالفوارق بينها جميعاً تكاد تكون شاسعة . وهذا معناه انه لاتخضع لفكرة واحدة وينوع فيها . بل كل رواية له ، لها بطل خاص يشق طريقا يخالف الطريق الذى يسلكه بطل آخر فى رواية أخرى .

عبقرية ديكنز

من دراسة كتابات ديكنز نلمس الفارق الكبير بينه وبين الكتاب الآخرين السابقين له ، ومدى عبقريته من هذه المقارنة ، والشئ الواضح الذى يدلك عليه أكبر نقاد الأدب الانجليزى . إن جميع كتاب الرواية الذين كتبوا وظهروا فى عصر ديكنز لم يضارعوا ديكنز فى قوة أسلوبه وروائع أدبه . فقد تفوق عليهم بسعة الخيال وقوة الفكاهه .

كان تعليم ديكنز مقتصراً وضعيفاً . أما مداومته على القرأة وتعليمه نفسه بنفسه ساعدته فى جميع المواقف .

كما خلق من نفسه رجلا عالماً ، فاضلا جليلا . وما أروع ما يقوله عنه الكاتب الأنجليزى النابه « أرنست بيكر » « ديكنز رجل من الشارع استطاع أن يصل إلى مصاف العباقرة بقوة إرادته الجبارة ! . . . »

ديكنز والنقاد

يقول « تاين » فى نقده الادباء الانجليز . . « بدأ ديكنز بكتابة مقالاته وروایاته وهى عبارة عن مقالات أحيكت بعضها ببعض فى مجموعة . وشخصياته لاتنمو أو تتغير كما يجب أن تكون عليه لو شاء لها ذلك . وليس لهذه الشخصيات تاريخ حياة تعرف أو تميز به . . »

وقد يكون فى هذا القول مغالاة . لأن لبعض شخصيات ديكنز تاريخ حياة ممتاز عرفت به . كما فى روايته « شازلويت » مثلا وغيرها . .

والواقع انه كان يعمد عادة إلى إصلاح ما أفسده المجتمع ويحث الشبان والشابات على الزواج . . وأن يعيش الجميع حياة سعيدة بعيدة عن المطامع الجشعة والاهواء الفانية ...

وهذه الناحية التى طرقها ديكنز فى كتاباته أعجبت الكثيرين من قرائه كما يقول « برنارد دارون » فى كتابه « ساعة السيد همفرى » « إن ديكنز تعمد أن يضحك القراء ويكسب جانبهم ، ويعطيهم ما يريدونه حتى ولو اضطره ذلك إلى تغيير الفكرة التى تحتشد فى دماغه أولا ، ولا يرى مانعا فى تغييرها ليدخل السرور على قرائه ... »

المذهب الواقعى وديكنز

هل كان ديكنز واقعياً يؤمن بالمذهب الواقعى ؟

الجواب سهل ميسور . فقد صور ديكنز أولا صورة حقيقية لحياته التى

كان يحياها فى جميع رواياته من غير استثناء . فى أمانة وصدق وعدم مبالغة أو مغالاة . فرواياته (بيكويك) و (دافيد كوبر فيلد) و (توقعات خطيرة) كلها صور حقيقية لحياته فى أيام طفولته وصباه . وكل ما كتبه ديكنز وجميع الحوادث التى ذكرها حدثت فى عالم الواقع لا فى عالم الخيال كما يظن الكثيرون...

وعلينا اذن أن نعتبر الرجل من ضمن هؤلاء الذين يدينون بمذهب الواقع. وأن العالم الذى خلقه للقراء هو عالم توصل اليه بسعة إدراكه. وعدم خروجه عن الواقع . فجاء عالم رواياته عالما واقعيا لا أثر للخيال فيه ...

ديكنز وثاكرى

المقارنة بين ديكنز وثاكرى مقارنة شاقة وعسيرة فى آن واحد . ويقول لك ذلك معظم النقاد الانجليز . فقد سطع نجماهما فى سماء واحدة فى وقت واحد .. وحدث لهما مثلما حدث لفيلدنج وريتشاردسن فى وقت ما. فالمقارنة بين الإثنين الأخيرين كانت شاقة وعسيرة أيضا . أو كما حدث لبردت وهاردى بعدهما ...

ولكننا مع هذا يمكننا أن نقول بحذر شديد أن الأثنين اختلفا فى كثير من المذاهب والآراء والاتجاهات . فعالم ثاكرى لم يكن كعالم ديكنز. وقراء ثاكرى لم يكونوا فى وقت ما قراء ديكنز ! وحتى اليوم نرى أن قراء ديكنز لا يقرأون لثاكرى ! . . .

فديكنز مثلا كتب للشعب أو الجمهور وشارك الشعب الحياة .

« فهو رجل من الشارع بلغ مصاف العباقرة . . »

« وفى ميدان الحياة كان أحد المجاهدين . . . »

أما ثاكرى فكان فى الميدان أيضا ولكنه تسامى عنه أو بمعنى آخر كان

يقف موقف المتفرج لا موقف المحارب . أو على حد تعبير أحد الكتاب الانجليز « كان بعيداً عن الجروح والآلام ، واكتفى بأن يتحدث عنها عن بعد » أما عن ناحية أدبه وفنه فكان أديباً وفنانا لا يشق له غبار ، تسلط على الأدب وأمسك بناصيته وتفنن فيه فاجاد وأبدع .. وبجانب هذا كان ثاكرى أيضا رجلا مثقفا ثقافة عالية ممتازة ...

وسنتناول فى الباب العاشر من هذا الكتاب بقية بحثنا عن مكانة ديكنز فى الأدب فى عصره . وتأثير هذه المكانة فى الاصلاح الاجتماعى ، والمقارنة بين ديكنز وثاكرى بعد متابعتنا سرد تاريخ حياته وعرض رواياته .

هذا هو مجمل تاريخ القرن التاسع عشر الانجليزى وتيارات الأدب التى مرت به من ألمانية وفرنسية ، وبعض الأدباء الذين ظهروا فيه واثروا عليه . ومن بينهم ديكنز ، موضوع هذا الكتاب ، وهذا سيعين القارىء لاشك على فهم مجمل رواياته والدواعى التى كتبت من أجلها ...